المحاضرة الرابعة: الحب الإلهي عند الصوفية:

ارتبط مفهوم الحب الإلهي في تاريخ الفكر العربي الإسلامي بالصوفيّة، والواقع أن مفهوم الحب الإلهي لم يكن إبداعاً صوفيّاً من حيث المبدأ، فقد ورد مفهوم الحب الإلهي أول ماورد في القرآن الكريم، حيث خاطب الله عباده المخلصين بقوله أنه ''يحبهم ويحبّونه''، وقد ورد العديد من الآيات في القرآن الكريم تؤكّد حب الله للمؤمنين بحيث يشمل هذا الحب جميع مجالات الحياة التي يحياها المؤمن، وقال تعالى ''والله يحبّ الصابرين''، وقوله ''والله يحب المحسنين'' وقوله تعالى ''فإن الله يحب المتقين''. وهذا بعض مما ورد في القرآن الكريم والذي يبيّن أن الله تعالى هو الّذي بدأ بمخاطبة المسلمين ليبيّن لهم طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون بين الله وعباده، وهي علاقة تقوم على مبدأ الحب الّذي يمنحه الله لعباده، إذا كانوا من الصّابرين ومن المحسنين ومن المتقين.

كانت بداية الحب إلاهيّة، من الله تعالى للإنسان، ولكن هل يمكن أن تكون هذه العلاقة متبادلة ، أي أن يحب الإنسان الله كما يحب الله الإنسان؟ لا نستطيع القول أن طبيعة هذا الحب يحمل في جانبيه تكافؤاً من نوع ما، فإن حب الله للإنسان ليس كحب الإنسان لله، فهناك دائماً الجانب الأقوى في هذا الحب وهو الله تعالى، وهناك الجانب الأضعف وهو الإنسان، ولا يمكن تحت أي ظرف عقد مقارنة بين هذين الحبيّن، فالله هو الخالق وهو المنعم بيده القوّة والملك، وقد ورد في القرآن الكريم ''ليس كمثله شيء'' فقد نزّه الله نفسه في هذه الآية الكريمة أن يوصف بما يصف الناس به بعضهم بعضا، وما يحيط بهم في هذا الكون.

وما يمكن أن ينطبق على أنماط السلوك البشري ضمن الحدود البشريّة لا يمكن أن ينطبق على الله تعالى، لأنّه أكبر من أن يوصف بصفات وضعها الناس للتفاهم في ما بينهم، وبالتالي فإن الحب من جانب الله للبشر ليس هو نفسه حب الإنسان لله، وإن اتفقا بالمعنى إلاّ أن الطريقة تختلف، وهذا ما يشير إليه القشيري بقوله (وليست محبة العبد له سبحانه متضمّنة ميلاً، كيف وحقيقة الصمدية مقدّسة عن اللحوق والدرك والإحاطة'' فالإنسان ليس بيده سوى الطّاعة التي يجب عليه أن يقدّمها لله تعالى. فأذا كان الأقوى هو الذي يبادر بعرض حبّه على الأضعف: فإن دور الأضعف وهو الإنسان أن يبادر بالإستجابة لهذة الدعوة الكريمة وهي أن يحب الله شكراً له على نعمه. ''وهذا الّذي يمثل جانب الطّاعة والخضوع لله، فليس من العبادة في شيء أن يرفض الإنسان الإستسلام لله، ويستكبر عن اتباع منهجه والإنقياد لشرعه''، وكما قال الله تعالى بأنه يحب المؤمنين من عباده فهو يطلب منهم أن يحبّوه، ويقول تعالى ''قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله''، وقوله تعالى ''ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله''. نلاحظ في الآيتين السابقتين أنهما تطالبان المؤمنين بحب الله ولكن أي نوع من الحب؟ إنه الحب القائم على الإيمان بالله وطاعته، وتتحقّق طاعته باتباع أوامره وتجنب نواهيه، لأن الله لايأمر إلاّ بالخير، وما يحقّق الخير للإنسان.

أفرد الصوفيّون مساحات واسعة من كتاباتهم لموضوع الحب الإلهي باعتباره من أجلّ أنواع السلوك التي يتوجب على المؤمن إتباعها إذا أراد أن يحوزعلى حب الله، وبدأت تظهر في عباداتهم وصلواتهم أشكال مختلفة من السلوك الإيماني الذي كان برأيهم يميزهم عن غيرهم من المسلمين.

قال أبو طالب المكي ''أن المحبّة أكمل مقامات العارفين...وهي إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين'' ويقول: ''فالمحبة تكون هبة من الله تعالى لأصفيائه من الأولياء، وهي أكمل أنواع المقامات التي يحققها المؤمن'' و''كل مؤمن بالله فهو محب لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشف مشاهدته، وتجلي المحبوب له على وصف أوصافه''. ويقول القشيرى أن الحب هو تفضيل الله لجماعة معينة من الناس هم عباد الله المخلصين بقوله ''الحب حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد''، ويرى القشيري أن الله تعالى إذا أراد أن ينعم على عبده بصورة عامة فإن هذه النعم تدخل في باب الرحمة الإلهية أمّا إذا تعلقت بخصوصها فإنّها تسمّى رحمة''.

يعلم الإنسان أنّ الله يراه وهو يعمل، ويسجّل عليه أعماله، فمن عمل صالحاً بتقرّبه لله حظي بحبّه، ويجب على الإنسان أن يرد هذا الحب بالإخلاص لله تعالى عن طريق الحب أيضاً. لأن الحب هو شكل من أشكال التعبير عن الشكر، والله هو أحق مايجب على الإنسان أن يشكره على نعمه الكثيرة التي منحها للإنسان، وأهمّها نعمة الإيمان، ويدخل الإنسان في ''حال المحبة'' التي يصفها الطوسي بأنها هي حال ''لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به، وحفظه وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ماسبق له من الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله له، فأحب الله عزّ وجلّ''.

يقول الطوسي أن أهل المحبة في ثلاثة أحوال: الحال الأوّل هو محبّة العامة، وهذا ناتج من إحسان الله إليهم وعطفه عليهم. والحال الثاني وهو يتولّد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته، وهذا النوع من الحب يصل إليه الصّادقون والمتحقّقون. أما النوع الثالث من الحب فهو محبّة الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبّوه بلا علة. إن الحال الثالث من تصنيف المحبين عند القشيري ينطبق تماماً على الصوفيّة، لأن الصوفي إذا أحب الله، فإنه لايحبه لغرض بنفسه، فهو قد هجر الدنيا بما فيها، وتحوّل إلى حال الزهد، ولم يبق له في هذه الدنيا مايحبها، فكان حبّ الله هو البديل الأسمى له، ومن كان سعيه لله فقد أمن على نفسه في الدنيا والآخرة.

رابعة العدويّة:

كانت رابعة العدويّة (ت185هـ) أوّل من قال بحب الله بلا علّة وهي من أقدم المتصّوفين في تاريخ التصوّف الإسلامي، فقد وصلت في بدايات حركة التصوّف إلى مرحلة متقدّمة في حب الله، ماجعلها تحمل لقب ''شهيدة العشق الإلهي''. فقد نذرت حياتها لحب الله، بعد أن هجرت الدنيا، واعتزلت حياة الناس ومن أقوالها:

أحبك حبين حب الهوى***وحبّاً لأنّك أهل لذاكا

فأمّا الذي هـــو حب الهوى ***فشغلي بذكرك عمّن سواكا

وأمّا الـــــذي أنت أهـــل له***فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمـــــد في ذا ولاذاك لي***ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ويشرح الغزالي هذه الأبيات لرابعة بقوله '' ولعلّها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها ، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبّه بما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبّين وأقواهما ''.

وتحب رابعة الله تعالى لأنّه يستحق هذا الحب، بل وصل بها الأمر إلى إفراغ نفسها من أي نوع من أنواع الحب الذي يمكن أن تكون أحد أهدافه مصلحة أنيّة، أو لتحقيق رغبة دنيوية، أما هي في هذا الموقف فلم يعد لها في هذه الدنيا أية مطالب، و لم يعد سوى مطلب واحد بل هو أمل واحد، هو تريد أن تعرف الله، وهذه المعرفة هي أن يكشف الله لها الحجاب حتى تراه . وكانت رابعة تحرص على أن تثبت لنفسها ولمستمعيها أنّها لاتريد من الله شيئاً، وأن حبها له ليس مرتبطا بمصلحة تسعى لتحقيقها حتى مع الله، والبيت الرّابع يبيّن أنها حتى في حال حبّها لله فإنها ليس لها فضل في ذلك ، وإنّما هو لله تعالى . فالشّكر دائماً لله الذي يوجه عباده باختياره لهم كي يحبّوه. ويروى عن رابعة أنها قد أصيبت بمرض، وقالت لزوّارها عندما سئلت عن سبب مرضها فقالت '' والله ما أعرف لعلّتي سبباً، غير أني عرضت على الجنّة فملت بقلبي إليها، فأحسب أن مولاي غار علي فعاتبني ، فله العتبى ''.

وعندما يصل الصوفي إلى مرحلة أن يميل بقلبه عن الجنّة التي يعرضها الله عليه، فماذا يريد أكثر من ذلك؟ إن ماتريده رابعة هو مايريده جميع الصوفيّة هو حب الله دون سبب، ودون نتيجة، بل الحب للحب ، بل هو الفناء في الله. وهو أقصى مايريده الإنسان من ربّه ومايطالب به نفسه. وفي إحدى الروايات عن رابعة أنّها رأت رجلاً يقبّل صبيّاً من أهله ويضمّه إليه، فقالت له: أتحبّه؟ قال نعم، فقالت له: ماكنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبّة غيره تبارك اسمه. فصرخ الرجل وسقط مغشيّا عليه. وعندما أفاق قال: رحمة منه تعالى ذكره ألقاها في قلوب العباد للأطفال.

فالحب لله من وجهة نظر رابعة كما تبينه الرواية السابقة تبين لنا موقفين بالنسبة لها : الأوّل : أنها تركت كل أشكال الحب الدنيوي، والثاني: أن حبّها لله لم يترك في قلبها أي مكان مهما صغر لحب دنيوي ، فقد شغلها حب الله عن كل حب '' لأن الصوفي بالمعنى الوجودي هو ذلك الذي يعزف عن الرضا لأنّه ينطوي على فكرة سلبية خالصة ، فتراه دائماً في خوف على أعماله ''.

وقد وصل بها الأمر إلى مناجاة الله مناجاة الحبيب للحبيب تقرّباً لله والمبادرة بإعلان حبّها الدائم له قائلة ''ألهي: أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلّقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيبٍ بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك. إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلتَ منّي ليلتي فأهنا؟ أم رددتها علي فأعزى؟ فوعزّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني ، وعزّتك لو طردتني عن بابك مابرحت عنه لما وقع في قلبي من محبّتك ''وينسب لها أنها خاطبت ربّها قائلة ''وعزّتك ماعبدتك خوفاً من نارك ولارغبة في جنّتك، بل كرامة لوجهك الكريم ومحبّةً فيك''.

تمثّل رابعة صورة الإنسان الذي ليس له في هذا الوجود أي غرض أو هدف أو طمع في أي شيء ، بل إنّها كانت تسعى لإقناع نفسها بأنها قد حازت على أسمى ماكانت تسعى إليه، وهوأن تهيم بحب الله ، فقط لأنّها تحبّه، وليس طمعاً فيما وعد الله به عباده الصّالحين، ولكن هذا لايعني أن رابعة لم تكن من عباده الصّالحين بل كانت كذلك ، فقد اتفقت الطرّق ولكن الهدف مختلف.

الغزالي:

سيتحوّل معنى الحب الإلهي عند الإمام الغزالي إلى قضيّة فكريّة لامكان فيها للمناجاة، أو قول الشعر، بل إلى عملية تحليل نفسي وأجتماعي تقوم على تفسير الحب الإلهي من بداياته باعتبار أن الحب هو حالة إنسانية، وأن الحب عندما يبدأ فإنه يكون بين البشر، ويتسامى مع التطوّر العقلي للإنسان حتى يصل إلى أرفع أنواع الحب وهو حب